تصادم الحضارات
أم تحالفها؟

البروفيسور مصطفى شريف

أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر.

وزير سابق للتعليم العالي والبحث العلمي

ملخص :

رغم مكتسبات العلمانية، تطور المعرفة المنفصلة عن المصادر التقليدية، تحرر أوروبا من سلطة التقاليد والانفصال المنطقي لحيز ما هو عام وما هو خاص، لم يتمكن المواطن الحديث إلى يومنا من الفرار من هذا البحث المستمر عن معنى الحياة. إن الحداثة قد سمحت بالتحرر وفي نفس الوقت، اعتبارا لخيارات تعسفية لأنظمة مهيمنة، أنتجت فوارق وحالات من عدم المساواة وانسلاخ الإنسانية. فبعد الكلمات على الصعيد الدكتاتوري مثل «كل شيء سياسي» أو « كل شيء ديني»، ترك المكان للعدمية ولكلمة التعليمة الجديدة :» كل شيء بضاعة». في حين أن التيارات المعادية للإسلام في الشمال والانغلاق الثقافي في الجنوب تعمل على معارضة المشرق مع المغرب، مغذية ما يسمى بفلسفة «صراع الحضارات»، ألم يحل الوقت للعمل على إقامة معابر تربوية وثقافية لمجيء حضارة عالمية جديدة؟ إننا نحتاج بعضنا إلى بعض لأنه لا أحد يستطيع أن يواجه تحديات زمننا المعقدة والمتعددة، لأن نفس الرهانات تهم الجميع، بدءا بالتحدي المتمثل في مخاطر انسلاخ الإنسانية، مهما كان الاختلاف بين الضعفاء والأقوياء. علما أن لا أحد يملك احتكار الحقيقة وأن العدل والتعددية يوجدان في صلب كل ديناميكية حاملة للرقي الأصيل.

الكلمات الرئيسية :

العلمانية – الحداثة – المعاصرة– الحضارة – التطور

«حوار الحضارات»، كلمات صارت متهرئة إلى درجة أن استعمالها يشوبه الشك. في سياق يمثل فيه الخبث والقسوة والوقاحة وازدواجية اللغة سلوكا عاديا، ألا تستعمل كواجهة من أجل تبرير الهيمنة، حيث القانون السائد هو الجمع المتزايد للثروات وأدوات القرار، حتى لو كانت أقطاب أخرى آخذة في البروز؟ إن كل من يصرح بأنه جزائري، مغاربي، عربي بربري، متوسطي، إفريقي، وارث للفكر الأندلسي، يعرف القيمة الحقيقية لهذه الكلمات.

فبينما يتداخل العالمان غرب ـ شرق ويتشابكان، حيث نستطيع القول اليوم إنه لا حاجة إلى التمييز بينهما، يسعى دعائيون إلى جعلهما متعارضين وإلى فرض النسيان من أجل تمويه حالات الظلم والعذاب. إن تاريخ بلادنا يبرهن على أنه بالإمكان إقامة ترابط بين ثقافة المقاومة والتفتح على العالم.

لقد امتزجت شعوب من الشرق والغرب على مدى قرون من الزمن، والحوار ممارسة قديمة وحكيمة، فلماذا لا نكون قادرين على التفكير كبوتقة من أجل ثقافة لم تصدر بعد ؟ إن «العالمية» يمكنها أن تحمل الحظوظ لفضاء مشترك ذي معنى ممكن؛ وهذا العالم هو بحق عالمنا وعالم الجميع، غير أن هناك ثلاثة أسباب على الأقل تغذي منطق المواجهة: 1 – الجهل، 2 – الظلم، 3 – إستراتيجية الهيمنة، وهو ما يتسبب في تزايد كره الأجانب،

من جهة، والتطرف، من جهة أخرى. لقد فضلت الجزائر دائما الحوار والحلول السلمية وتقارب الشعوب. فهناك ضرورة مستعجلة للحوار من أجل فك العزلة عن الثقافات لأن الهويات المنطوية على نفسها والمتقوقعة هي التعبير الظاهر للمشكل؛ والخروج من الأزمة الأخلاقية العالمية يمر عبر الحوار بين الثقافات.

لا نقوم بالحوار من أجل التسلط، فالحوار لا يقتصر على المناظرة بين شخصين، بل هو أيضا مع الذات، القابلة للتحول. إننا نحتاج بعضنا إلى بعض لأنه لا أحد يستطيع أن يواجه تحديات زماننا المعقدة والمتعددة، لأن نفس الرهانات تهم الجميع، بدءا بالتحدي المتمثل في مخاطر انسلاخ الإنسانية، مهما كان الاختلاف بين الضعفاء والأقوياء. يجب أن يتيح الحوار بين الثقافات أجوبة ذات مصداقية أمام التحديات التربوية المشتركة، كيف تستطيع المدرسة والجامعة مثلا أن تحققا تعايش الثقافتين، ثقافة الإنسانيات وثقافة المسعى العلمي، ثقافة القيم وثقافة منطق السوق، ثقافة الذاكرة وثقافة المستقبل؟ كيف تحققان الترابط بين الامتياز والتعميم، وأولية الحقيقة وأخلاقية المعرفة مع النفع والفاعلية؟

الصدام : تضليل

إن الكتابات، منذ 1989، عن إستراتيجية «تصادم الحضارات» تعبر عن الجهل والاختراع التعسفي لصورة عدو جديد، بعد سقوط جدار برلين سنة 1898. إن كُره الإسلام عملية تضليل قديمة والمفهوم اللامعقول لـ «تصادم الحضارات» يُرجِع التوترات إلى قضايا ثقافية، بينما الثقافات، بطبيعتها، متفتحة على بعضها البعض. فبالرغم من مرور قرون عدة من العلاقات الخصبة، فإن كره الإسلام في الشمال وتيارات الانكماش في الجنوب،

تظهـر بلوحـات مغلوطة لأنها تنكـر الروابـط القائمة بين الحضـارات. إن الأحكام القيمية ترفض التنوع وتقيم كتلا خيالية متعارضة.

كان للغـرب مرجعيـة يهوديـة إسلاميـة مسيحيـة ويونانيـة عربيـة؛ وإن وحدانيـة الإلـه فـي الأديـان والنزعـة الإنسانية والبحـر المتوسط هي مصادرنـا المشتركـة، وهي متراكبـة ومتشابكة ومعـادة التركيب. لا توجد عداوة بين الحضارات، بـل تحاول تيارات أن تستهدف الآخر المختلف على أنه عدو، وذلك حتى تتفجر دوافع العنف الكامنة في كل واحد، وقد تفاقمت بسبـب البؤس الاقتصادي والنفساني والثقافـي والجور والفوارق والتعسف، في اتجاه آخر غير اتجاه الأنظمة المتسلطة.

إنها سياسة كبش الضحية، وثقافة الخوف هي التي تشير إلى الآخر بأنه يمثـل تهديدا. فـلا يمكن أن يتحقـق التفاهم والتبادل والتقاسـم إذا اعتبر الآخـر، من الوهلة الأولى، بأنه يشكل عدوا محتمـلا. في هذا السياق تتنكر تيـارات كره الأجانب لنقـاط التقارب في الحضارة الأخـرى والقسط الذي ساهمـت به في صنيع الإنسانيـة وترفض الاعتراف بحق الآخر في أن يعيش بحرية وفقا لانتماءاته المتعددة.

لـن نستطيـع فهـم النزعة الإنسانيـة، «مـا الإنسـان ؟» دون التحاور مع الحضـارات الأخرى. يقر الفيلسوف الحديـث أن «النزعة الإنسانية لا تفكر عاليـا بالقـدر الكافي فـي أَنَسِيَـة الإنسـان» ؛ وإن الحضـارة الإنسانية غير مرئيـة، وقـد يظهر العكـس أحيانا. لا يتعلـق الأمر بالعودة إلـى المقدسات كحـلّ، بل بإعادة تفعيل البعد الإنسانـي والأخلاقيات، لأن 1 - الغير يساهم فـي التعريف بمعني «الإنسـان»، 2 - التفتح على معاييـر مشتركة ليست لها صلـة كبيرة بالأخطار التي تسببها مقاربات الحرية وكرامة البشر المغلقة ، 3 - العيشـ معا أمـر لا مناص منه. إن التحديات المشتركة تدعو إلى إسماع صـوت ثقافات جديـرة بتقاليدها السامية، ليسـت «معتدلة» فحسب — وهو

نعت ضعيف- بل تلك المتعلقة بالتفسير، وبالتفتح، وبسمو الفكر، دون التخلي عن اليقظة، والنقد والنقد الذاتي.

هنالك سياسات ووسائل إعلام تفرض على الشمال خطابا سلبيا عن الغير، مختلفا، في الجنوب عن الغرب. توجد الأحكام المسبقة منذ 15 قرنا وإقامة معابر تربوية وإبستيمولوجية تعد أمرا حيويا، حيث لا يمكن نكران المكانة الأساسية للثقافة؛ فبدون البعدين الإنساني والثقافي، تكون الشراكة مبتورة من الشيء الأساسي فيها. إن مفهوم «بلاد المغرب» الذي يحيلنا على أبعاد جيوثقافية، يجب استبقاؤه والبحر الأبيض المتوسط ليس هو مكان الانحلال. تحتل الجزائر مكانة مركزية في هذا الأفق ويبين مسارها أن مفهوم الجماعة المتوسطة ممكن.

الثقافة في صلب النقاش

على صعيد التاريخ الثقافي، فقد تَشكل الغرب بصورة متعارضة مع فوارقه، في حركة قطيعة وتملّك للعقل، وللديمقراطية والنزعة الدنيوية.

يتعين مساءلة هذه المفاهيم مجددا، لأنها على عكس الأحكام المسبقة، ليست غريبة عن ثقافات أخرى؛ وفي هذا السياق، فبينما لا يخلط كل الأوروبيين بين الروحانيات والتطرف، فإن اللاوعي الجماعي يعتبر «المسلم» كالأجنبي الذي يقاوم نظام القيم الحديث. فإذا أثيرت مسائل بخصوص المسلمين فهذا أمر مشروع، إذ يجب علينا تقبل الانتقادات بخصوص تصرفات إشكالية، لكن لا نقبل الخلط والتسرع في الأحكام، إذ أن الإقرار بحق الآخر في الاحتفاظ بثقافته حية دون الانقطاع عن العالم هو أمر حيوي.

إن نور العقل الموظف لأغراض معينة لم ينر الكائن الإنساني كلية، فبينما تطرح قضايا ثقافية مثل «كيف نتعلم العيش؟»، «ما الإنسان ؟»، «أي

معنى يعطى للحياة ؟»، يُرفَض حقنا في النقد. هناك آراء تتساءل عن حالة العالم الإسلامي: النقاشات عن الإصلاح والتعددية والحكامة الرشيدة؟ وطرح هذه الأسئلة لا يعني كره الإسلام؛ لكن مقابل ما قد يفكرون فيه، يوجد كره للإسلام حيث يحكم على المسلم، كما كان عليه الحال بالنسبة إلى اليهودي في الماضي. إن أوروبا التي يرعبها الدين، تخترقها حركتان تتمثلان في بذل الجهد لتيسير الشراكة وفي تصرف متشنج تجاه المسلمين.

ليس صحيحا أن الغرب كله يجمع بين «الثقافة التقليدية» و«التعصب»، غير أن هناك دعائيين، لإخفاء انسدادهم، يتحدثون عن الصدام ويوهمون بأن ثقافة الآخر هي مصدر العنف. إن الظلم وسياسة الكيل بمكيالين تناقض المبادئ الحضارية؛ وينتهي الأمر بالرأي العام إلى أنه لا يرى سوى عنف الآخر دون أن يدرك سبب هذا العنف. بالفعل، يلاحظ العالم قاطبة حالات التعصب التي يؤدي إليها الانحراف التطرفي لبعض «المعتنقين» لدين عظيم. إن الاستيلاء على الاسم لا مبرر له، حيث قال الأمير عبد القادر الجزائري منذ قرن : «يظهر المسلم أحيانا بمظهر مخالف لدينه»[1]. وكما أشار إليه هنة آرندت Hannah Arendt»، يرجع ذلك في معظم الأحيان إلى الاستفزازات وحالات الظلم : «في الأنظمة الدكتاتورية، يصير الاستفزاز شكلا من أشكال السلوك مع الجار»[2].

الحق في النقد

لقد آل بنا الأمر إلى وضعية غامضة، فرغم مكتسبات النزعة الدنيوية، فإن تطور المعرفة المنفصلة عن المصادر التقليدية كالتي عرفتها المعرفة

(1) الأمير عبد القادر، *رسائل إلى الفرنسيين*. إصدارات المؤسسة الوطنية للإعلام والنشر والإشهار.

(2) A Arendt، *النظام الدكتاتوري*، منشورات Essais-points.

العربيــة، وتحــرر أوروبا من سلطــة التقاليد والانفصــال المنطقي لحيز ما هــو عمومي وما هــو خصوصي، قد أدت إلــى تهميش المبــادئ الإبراهيمية وإلى إعادة النظر فــي إمكانية الحوار بين الثقافات والعدل والعيش معا. إن الخطورة تكمن في تحييد بُعدَي الإنسان: السياسي (الديمقراطية) والديني (الأخلاقيات).

فبعــد الكلمات على الصعيــد الدكتاتوري «كل شيء سياسي» أو «كل شيء ديني»، يفرض «لا شيء سياسي ولا شيء ديني» لترك المكان للعدمية ولكلمة التعليمــة الجديــدة : «كل شيء بضاعــة ». إن هذه الرؤيــة المختزِلة تفرض ثقافــة وحيدة وضعيفــة، وتصورا وحيدا للرقي وللعلاقــات بين الشعوب. إن حــوار الصم كارثي ومنــه لا تكون العلاقــات الثقافية الدوليــة ديمقراطية؛ وممارســة الإنسان للنقــد الذاتي لتجاوز نقط ضَلالــه بخصوص انحرافات تقاليده وانعدام النظام العالمي، تعد أمرا واجبا.

إن الحداثــة قــد سمحت بالتحــرر وفي نفــس الوقت، اعتبــارا لخيارات تعسفيــة لأنظمــة مهيمنــة، أنتجــت فــوارق وحــالات من عــدم المســاواة، وانســلاخ الإنسانيــة. واليــوم، هنالــك عــدد متزايــد مــن الشعــوب التــي أدركــت هــذه المفارقة وتريــد أن تكون عصريــة وإنسانية، حــرة ومتوافقة مــع أخلاقيات معينــة، ومتنوعــة ومنفردة فــي آن واحد. وهــذه المتطلبات واعــدة؛ وهذا يعني أنــه يمكن الرد على تجريد العالم من مدلوله بشكل آخر غير الانكماش.

فعلــى هــذا المستــوى مــن الثقافة، لم يعــد للمواطــن ارتبــاط بالتنوع، فالتعدديــة الثقافية تعارضهــا أطماع الهيمنة. إن النظــام التربوي في أزمة تعــود إلى الأزمــة المجتمعية ككل؛ وإنها ليست نهايــة العالم بل نهاية عالم. يتعيــن أن نفهــم ذلــك لكي نختــرع عالما آخــر يفلت من كل انغــلاق. وعلى صعيــد المعرفة، فإن مــا يقلق هو إعــادة النظر في إمكانيــة التفكير بشكل

مغاير وفي مبدأ السلطة. تصرح ثقافتان متناقضتان للثقافة العصرية أن الثقافة التقليدية يجب أن تستعمل للمواساة دون أن تتدخل في العالم وإلا وقع سلب؛ وبسبب انعدام المبادلات الثقافية المستمرة والهامة، فإن ذلك يرهن البحث عما هو عادل وجميل وصائب. تتعولم الانسدادات مما يجعل الحاجة إلى حضارة العيش معا أمرا مستعجلا؛ والجزائر باعتبارها بوتقة حضارة، تدافع عن حوار الحضارات.

غاية الحوار

لحوار الثقافات ثلاثة أهداف على الأقل هي: التعارف التبادل، إقامة معايير مشتركة، والعدل على كل المستويات، من أجل تعلم معايشة العولمة معا. إن الانطواء على الذات غريب عن ثقافتنا، حيث إن مواطن الضفة الجنوبية قد شارك ويستطيع أن يشارك اليوم أيضا في البحث عن الحضارة. يتعين على مواطن الجنوب أن يسترجع تفتحه على أكبر الجماعات وهي البشرية، وفي ذات الوقت يجمع بين الوحدانية والتعددية التي سمحت بالازدهار والعيش معا. أما الخطب السائدة في الضفة الغربية، يجب من جهتها أن تضع حدا لسياسة نكران كل ما هو مشترك بيننا وأن تتوقف عن فرض، بصفة رجعية، رؤية أحادية من جانب واحد للثقافة. فالمسؤولية متقاسَمة.

سوف تنبثق عن ذلك إجراءات ملموسة من أجل تحقيق التربية والأنسنة وتحميل المسؤولية، باعتبارها حظا مشتركا. بعد خمسين سنة من استرجاع سيادتها، فإن الجزائر، وهي ملتقى الثقافات والأرض المضيافة، بالنظر إلى قيمها وتاريخها وجغرافيتها، تتحمل عالميتها وفردانيتها وهي مصممة أكثر من أي وقت مضى على التمسك بحوار الثقافات، قصد تشكيل مجتمع المعرفة والمساهمة في تشييد حضارة عالمية جديدة؛ علما أن لا أحد يملك

الحقيقــة لوحده وأن العدل والتعددية يوجدان في صلب كل ديناميكية حاملة للرقي الأصيل، فلا مناص للرجل صاحب النية الحسنة إلا أن يتوخى البحث عــن المعرفة والنقاش ما بين الثقافات، في إطــار الاحترام المتبادل. ذلك هو المستقبل.

من نفس المؤلف :

- *الأميــر عبد القادر، رسائل إلــى الفرنسيين*. الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- أ. *أرنت، النظام التسلطي*، مطبوعات بوانت، باريس.
- *الاســلام و الغــرب : لقــاء مــع البابا جاك دريــدا* ، مطبوعــات برزخ، الجزائر، 2006.
- *الاســلام : متسامح أو غير متسامح؟* مطبوعات أديل جاكوب، باريس، 2006.